وهنا لا نستطيع مقاومة اغراء نقل جزء من المشهد الذي نقله الينا محمد وتد:

« ـ اصطف في الدوار عدد من السيارات العسكرية...الصرصور في المقدمة، وأصوات الرطن تنبعث من أجهـزتـه. فظهرت في سماء الخربة طائرة مروحية... و... هبطت من السماء موجة من الحجارة، تبعتها موجة أخرى. قفز الجنود من الصرصور شاهرين أسلحتهم... و... كان اطلاق النار مستمراً...»[١٥].

وفي مشهد آخر استبدل الاطفال بالنساء:

«... تناولت عيوش حجراً وخمعت به الضابط... تبعتها صبرية وصابر، وتطايرت الحجارة في كل صوب... و... الحجارة تتطاير في السماء باتجاه الجنود، الذين استأنفوا اطلاق النار»[١٦].

وتكـرّرت هذه الصـور وتنـاثرت في الارض المحتلة. وقد برع في نقل الصور الواقعية صاحب «الجراد». فالاطفال الصغار سعوا بأحجارهم لتحضير الجوّ للكبار «في حصونهم داخل المخيم مع حجـارتهم ومقـاليعهم للانـطلاق للمعـركة، وينتظرون اشارة من عروة، بعد ان ينجح في استفزاز الجنـود...». وعـلى هذا النحـو تبدأ المعارك بين طرفين غير متكافئين، لكنها تبرهن على ان الطرف الأضعف، صاحب الحجر، يظل أقوى من خصمه وأعتى.

وبهذا نصل الى بدهية واحدة هي ان الصغار لا يعملون بمفردهم، وانما يتحوّل الحجر والمقلاع الى مولوتـوف وكلاشنكوف: «الحجر صار كلاشنكوف». ومن هنا تزداد حمية المعركة، حيث يبرهن الشعب الفلسطيني على جدارته، في العيش بأرضه؛ اذ سرعان ما نكتشف ان من يسقط يظل شهيداً، ويخرج لمقابلته ذووه «بالزغاريد». فكثيراً ما نشهد ارتباط الشهيد بالزغاريد، حتى أصبح ذلك مشهداً مألوفاً الآن في الارض العربية تحت نير الاحتلال.

ولا نكون في حاجة الى ان ندرك بسهولة، عبر التصوّر الفني، ان «جراد...» شحاتة راضي لا يلبث ان يتزايد. فالجراد، هنا، هو «عامة الشعب» الذين يتصدون لهذا العدو.

ان الجراد، وهو رمز مستعار، يتعرّض للطائرات التي ترشّه بالغاز للقضاء عليه. لكن هذا الجراد سرعان ما يكتسب مناعة ضد هذه الغازات، فيمتص الغاز، ويتحوّل الى مخلوق أقوى في حالة خلاصه من هذا الشر؛ ومن ثمّ يتحوّل، من جديد، الى كائن أقوى وأصلب في هذا المناخ المعادي له.

ونتيقن، عبر صورة أخرى، ان الوعي الفلسطيني يصل الى أقصاه، وهو ما بدا، على سبيل المثال، في الموقف من الاميركيين، لما يلعبونه من دور سيء لنصرة الصهيونيين وامدادهم بكل ما يحتاجون اليه من مال وسلاح وتأييد، ثمّ لما يلعبونه في ضمان بقاء اسرائيل بالتحالف مع القوى الرجعية في المنطقة العربية.

لقد ذهب تأييد الاميركيين للصهيونيين الى حدّ استخدام حق النقض (الفيتو) لصالح اولئك المستبـدين. وذهب تأييـد الامـيركيين للقوى الرجعية العربية الى حشد مئات الآلاف من الجنود والمعدّات الحديثة للانتصار لبعض الشيوخ الذين يلعبون لعبة الامبريالية ضد شعوبهم العربية. وفي هذا كله، لا يفوتنا ان نلحظ الفهم الحقيقي للدور السوفياتي. لقد أدرك «الانتفاضيون» ان هذا الدور لم يعد كما كان. فاذا أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية حكومة مؤقتة، فسوف يأتي اعتراف الروس «خفيفـاً كندف الثلج»، في حين نلحظ ان مفاتيح الاستثمار الاقتصادي في المنطقة لا تمر «الاّ عبر البـوّابـة الاميركية، ما دام الحكام العرب يركبون نياقهم ويحاربون بسيوف الحجان»[١٧]. ويكون